من سير
أعلام الشّهداء

٢٦

أبو رضوان التّونسي

مَجلِسُ شُورَى المجَاهِدِينَ فِي العِرَاق

أبو رضوان التونسي

ها قد رجعتُ لتوّي أخطُّ بِرِجْلي الأرضَ والعَبْرَةُ تملأُ عينيَّ والحيرةُ تملأُ قلبي، أعـــودُ بعدما وقفتُ على سيّارة كيّا بيك آب يمتدُّ بطولِها شابٌّ وسيْم في نومٍ أَبَديّ هادئ وأحاطَ به عددٌ من إخواني وإخوانه وقوفاً، إلا أبا زياد جالسٌ بجانبِـــه يضـــحكُ ثم يَبْكي، يُمْسِكُ بوجه أخيه وحبيبِه ورفيقِ دَرْبه حتّى الممات " أبي رضوان " قـــائلاً: مع السّلامة، فُزْتَ يا حبيبي ثمّ تدخله حاله أشبهُ بالهستيريا قائلاً: هيه.. هيـــه مـــع السّلامة ويضحك ثم يبكي حتى أبكى جميعَ من حولِه.

وقال أبو أسامة وهو واقفٌ على رأْسِه: كان وجهه قبل الذّهاب للعمليّة كـــالقمر وأشهدُ أنّه كانَ أشجعُ من رأيت، فقلتُ في نفسي: وأنا أشهد، ثم قال أبو سمـــير " صاحبه ": أشهدُ أنّك كُنْتَ تقاتل لتموتَ وتُرْزَق الشّهادة وقد نِلْتَهَا يا حبيبي.

ثمّ قالَ ثالث: والله ما كان فينا أشجعُ منك ففي يوم كـــذا فعلـــتَ كـــذا وكـــذا وكذا....

وقال رابع: أشهدُ أنّك ما أردتَ يوماً ما إمرةً ولا سمعةً وكنتَ دوماً محباً لإخوانك مخلصاً صادقاً...

كلُّ هذا وأنا أسمع.. لا أستطيع أن أنظرَ إلى حبيبي، وفجأةً انفجرتُ بالبكاء محـــاولاً التّجلّد وما استطعتُ، ثم أشرتُ بإصبعي إلى أبي رضوان: هؤلاء هم شـــهداءُ الله في الأرض، وأشهدُ أنّك كُنْتَ كما قالوا، وإني لأرجو يا حبيبي أن تجَد هذه الشـــهادة أمامك وأن يرفعك الله في أعلى عليّين.

و هنا بكى من لم يكن بكى، ثم أطبقَ صمتٌ على المكان ثم حاولتُ التّجلد قائلا: ما لكم يا شباب، هذا هو ديننا، إننا أمّة لا تموت على الفراش، والشـــهادة أسمـــى أمانينا، وإنّا لنرجو من الله أن نلحق به مقبلين غير مدبرين كما كان. ثم قلت هيّا يا شباب انصرفوا واتركوا عدد قليلاً من الإخوة يدفنوه ولا يبقى في المكان إلا الإخوة

الأنصار، ليذهب كل المهاجرين وحتى لا يكون تجمعنا سبباً في هلاكنا جميعاً، وبسرعة أمتثل الشباب لنصائحي، ثم خلا بي "أبو زياد - أبو سمير – الفاروق" قائلين: اسمح لنا أن ندفن أخانا فقد كان وكان، فسمحت لهم وانصرف الجميع والحسرة ملئ عيونهم وقلوبهم.

اسمه "حمزة" وكنتيه " أبو رضوان" والإسم والكنية على مسمّى، من تونس من مدينة بنزرت. ولمجيئه إلى العراق وجهاده فيه قصّة ونشيد، وإليك يا أخي مختصر هذا المشوار.

جمعَ " حمزة " ما يمكن أن يجمعه من مالٍ حتّى استكملَ تذاكرَ السّفر ثم سافر إلى " ليبيا " ثم منها إلى " مصر " ثم ركبَ من ميناء نوييع المصري إلى العقبة عن طريق العبّارة، وفي العبّارة سلّم جواز سَفَرِه وحتى يُختم للدّخول كما هي العادة، لكن الجميع رجعت إليهم أوراقهم إلا صاحبنا، نودي عليه ثم أدخل إلى غرفه بها أشخاص ملتحين ويتظاهرون بالصّراخ، وصلت الفكرة إلى أخينا، ثمّ أُخرج وأدخل إلى سرداب تحت الأرض ووجدَ نفسه في وسطِ جمعٍ غفيرٍ من الجنود المدجّجين بالسّلاح، كلٌّ قد وجّه إليه سلاحه، ثمّ أُخِذَ على الفور إلى غرفة التّحقيق، فلمّا لم يصلوا معه إلى شيء، حيث كان أهمّ سؤال يدندنون عليه، أنت تريد أن تذهب إلى العراق، وصاحبنا ينكر.

ثم رفعوه إلى غرفة التّعذيب وضَرَبُوْه حتّى سقطَ أرضاً ثم أخذوهُ إلى غرفةٍ بها كراسي متراصّة في صورةٍ دائريّةٍ وعبارة عن مجموعة من الدوائر، وفي وسط هذه الكراسي الدائرية يوجد كرسي في الوسط هو مركزها، أدخلوه إلى ذلك الكرسي وأجلسوه عليه ثم ربطوه به وهو الجثةُ المنهكةُ من التعذيب.

أسندَ المسكينُ ظهره إلى الكرسي فإذا بسكّين بارز من الخلف، حتّى إذا حاول أن يسند ظهره يدخل فيه، بالطبع صاحبنا معصوب العينين، ثم وضعَ يده على جانب الكرسي ليعدّل من نفسه ويستريح، فإذا بالدّم ينزف منها، فقد هُيّئت حافة

الكرسي، وصنعت على شكل سيف يقطع عند لمسه، وظل هكـــذا علـــى هـــذا الكرسي يومين بلا طعام ولا شراب، فقط الضرب والتعذيب هو كل شيء ولـــيس لهم سؤال إلا لماذا تريد أن تذهب إلى العراق؟.

ثم اتّصلوا على تونس، ففرحت الحكومة التّونسية، قائلة إنه مطلوب بقـــوّة إلينـــا، أرجعوه لنا.

فأرجعوه بنفس خط السّير الذي جاء فيه، فلما وصل إلى " مصر " اعتقلوه وعذّبوه أياماً، " لماذا تريد أن تذهب إلى العراق؟ "، ثم سُلّم إلى "ليبيـــا" وهنـــاك اعتقلـــوه وعذّبوه عذاباً تَرَحَّمَ فيه على عذاب " الأردن " و" مصر "، والسؤال ما زال هـــو السؤال: " لماذا تريد أن تذهب إلى العراق؟ ".

ثمّ سُلّم إلى "تونس"، وفي سيّارة وزارة الداخلية كانت المعاملة كما هو معتاد لمثلـــه من أهل الصّلاح فهو معروفٌ عندهم.. مُشاكسٌ شديدٌ وإرهابيٌّ عنيـــد " لطالمـــا سُجِنَ بسبب لحيته وأفكاره ثم يحلقوها له ويعود إليها ويعتقلوه وهكذا مراراً ".

وفي هذه المرّة ولأنه كان عبارةً عن كومة من اللّحم والعظم، لم يفعلوا معه شـــيء حتى يصلوا به إلى تونس العاصمة، وفي الطريق استراح الرّكب بمطعم على الطريـــق لأجل وجبة الغداء وذهبوا جميعاً لإحضار الطّعام، ثم جاء عمّال المطعم بالطعام إلى مكان الجلوس الموجود فيه الشهيد، فتوسّم الخير في هذا الرجل الذي أحضر الطعام، فقال له: خذ هذا الجواز وانصرف، احتفظ به أو أحرقه، المهم افعل شـــيئاً فـــإني توسمت فيك الخير.

فأخذه ذلك الرّجلُ وانصرف، ثم جاء لصوص الترحيل وأخذوه وانصرفوا بـــه إلى وزارة الداخلية، ولما وصلوا سألوه عن الجواز (جواز السفر)، قال: مـــا عنـــدي، ضربوه شهراً كاملاً عليه، وهو يقول ألقيته من السّـــيّارة، ثم أُفرج عنـــه للعـــلاج ولشدّة حالته.

وبعد أيّام قلائل ذهب " حمزة " – " أبو رضوان " إلى مدينة "مانـــــز" المجـــاورة،

وبينما هو يسير في الشّارع إذا بذاك الرّجل صاحب المطعم يلتقي به صدفةً، فتعانقا وحمدا الله على السّلامة، وقال له هذا الرّجل: لقد جئتُ أبحثُ عنـــك لأعطيـــك الأمانة وسألتُ الله أن يُفرّج عنك، فالحمد لله. وبعدما استلم " أبو رضوان " جواز سفره وعلى الرغم من أنه مختوم بختمٍ أحمر وبجواره عبارات " أنّـــه مطلـــوب" أو إرهابي وغير ذلك.

ذهب أبو رضوان إلى أبي زياد وأبي سمير وعدداً من الإخوة بلغ ستّةً من أصـــحابه واتفقوا على السّفر مره أخرى، وسافر الجميع ومعهم أبي رضوان وبـــنفس جـــواز السّفر الذي اعتُقِلَ به وعُذّب حتى الممات وبنفس الهمّ.. وإلى ليبيا نفس الدولة التي عذّبته، فلما وضع جوازه أمام شبّاك التذاكر وضع الضّابط يده على رأسه متعجبـــاً ناظراً إلى أخينا، ومن غير أن ينطق بكلمة أعطاهُ الجوازَ بلا ختم، ثم قال: أتفضـــل ادخل. دخلَ أبو رضوان ليبيا وهو لا يُصدّق، ثم سافر إلى دولة أخرى ثم بحث عن منسّق له وفي رحلة طويلة شديدة العذاب وصل إلى العراق.

وإنّما ذكرت القصّة لأسباب كثيرة أهمّها:

- ليعلم كل أخ أن للأسباب حدود.
- أن من يتوكّل على الله يجعل له من أمره يُسْراً.
- ليعلم كل قاعد مهيأ له السَّفر للجهاد أن الله لن يُسامحه، فهذه حالـــة الرّجـــل وسافر، فكيف بكم.
- أن من يَصْدُق الله يَصْدُقه.

وبالعراق كان أبو رضوان الفارس الذي لا يُبَارَى والأسد الذي لا يهدأ ولا يعرف الرّاحة، يُلقي بنفسه بين أحضان الموت لعلّه يُرْزَقُ الشهادة، وفي كلّ مرّة كان يعود سالماً باكياً أنه بعدُ حيّاً، وقد شارك في أهمّ عمليات الإخوة في العراق، شـــارك في عملية السجن أبو غريب الثالثة " غزوة أبي أنس الشامي "، وكان أبو رضوان أوّل

من وصل إلى سور السّجن هو وأبو عبد الرحمن اليمني وصعدا السّور وكبّرا عليه، وفجّرا باباً فرعياً كان مقرّراً الدّخول منه، إلا أنهما فُوجِئا بساتر ترابي خلف الباب.

و شارك في عملية سجن مكافحة الإرهاب، وكان أحد الشّخصين الوحيدين اللّذين نفّذا المرحلة الأخيرة من العملية، حيث دخل إلى باحة السِّجن وحاول أن يفكّ أسر إخوانه، وشارك في عمليّة حيّ الرسالة ضد مركز الشّرطة وكان له اليد الطولى فيها.

و ما زال يتقلّب مع إخوانه من معركةٍ إلى أخرى حتى جاء ميعاد آخر غزوة في بغداد في الخامس من شهر رمضان، ثم تمّ تأجيل الغزوة لسبب أمنيّ على أن نعود إليها في اليوم الثاني، وذهب الجميع ضاحكين إلا أبي رضوان خلا بنفسه في ناحية البيت وأخذ يبكي بكاءاً حاراً، جاء إليه أحد إخوانه قائلاً: ما بك؟، قال: والله ما رجعنا اليوم إلا لذنوبنا، الذّنوب هي السّبب، لا الأمن ولا الطّريق، مَنْ لزوجة الشّيخ " أبي عزام " ؟... إذا لم نأخذ أسرى.. لن يُطْلِقُوها.. مَنْ للنّساء.. ؟ مَنْ..مَنْ ؟ ثم انخرط في بكاءٍ حار.

وبعد أن هدأَ جئتُ إليه وقد عرفتُ بالأمر، إلا أنّه كان قد ذهب ما به وبدا طبيعيا ثم استقبلني بابتسامةٍ ساحرةٍ وأخذني بالأحضان وحاول تقبيل رأسي وحاولت منعه، ثم ودّعتُهُ وانصرفت، وأنا في حيرة من أمري، أحقّاً اقترب موعد أبي رضوان، فقد بدا عليه سيما الشّهداء، وليس هذا دَجَلٌ وسِحْر، فقد عرفنا هذا الأمر بالتّمرس وكما سبق أن قلت، يبدو الأخ جميلاً أكثر من المعتاد، نفسه طيبة، وعلى الجملة يبدو " مخبتاً "..، و في نفس اليوم رأى فيه أبو زياد رؤيا:

" رأى أنّ أبا رضوان يلبس ثياباً بيضاء جميلة جداً، ورآه يُقبل عليه والنّور يشعّ من كل شيء فيه، ثم نادى على أبا زياد قائلاً: تعال.. الشّجر هنا تخرج منه رائحة المسك، وكان أبو أسامة أيضاً في نفس اليوم قد رأى رؤيا، قال أبو أسامة: " رأيت كأنّي أنظر إلى السّماء، فإذا بها مفتوحة، فقال أبو رضوان ممكن نفوت (أي نمرّ إلى

السماء)؟. قال أبو أسامة: لا ذنوبي كثيرة.. قال أبو رضوان: " لا، نقدر نفوت، بـــإذن الله الأمر سهلاً ".

وفي اليوم التّالي المقرّر للغزوة، وبينما كان الإخوة يهمّون بالرّحيل جاء الإخوة يُودّعون بعضهم قبل الغزوة، فعانق أبو سمير صاحبه أبي رضوان، فنــزع أبو رضــوان ســاعته وأعطاها لأبي سمير قائلاً.. خذ هذه تذكرني بها فإني لن أعود في يومي هذا، فضحك أبو أسامة وقال: يا رجل إن شاء الله تعود سالما آمناً..

قال أبو رضوان: صَدّق.. لن أعود، والله لن أعود، واستغرب صاحبه إصرار الرّجل فهو الذي لا يعرف المزاح والكذب، ومضى الرّجل إلى غزوته، وعلى إحــدى ســيطرات مغاوير الداخلية والمكونة في معظم أفرادها من " فيلق الغدر بدر " سدّد أبــو رضــوان قاذفته إلى سيّارة من سيّارات الدّورية ثم رمى بقذيفتين على بُعْد مئــة متــر. ثم رمــى بالقاذفة في السّــيّارة وأخذ الكلاشنكوف وانطلقَ يعدو تجاه الهدف وسط اســتغراب الجميع، حتى وصل إلى سيّارة المغاوير وأخذ يُطلق في الرّأس لكل طاغية ثم أخذ يَصْــلي (طلقات سريعة) مَنْ تبقّى بالسّــيّارة المجاورة، فلما انتهى عتاده، عاد مسرعاً إلى إخوانه وأخذ من احدهم الــB.K.C وراح يعدو مرّة أخرى تجاه الهدف.

وهنا جاءته رصاصة في رأسه سقطَ مباشرة على إثرها شهيداً، فحمله أخوه أبو زيــاد وضمّه إلى صدرهِ ونطلق يعدو به نحو سيّارة الإخوة وعاونه أصحابه، ثم انصرفوا بعدما قضوا على عدوّهم ومعهم عريس قد زُفّ إلى عروسه.

تُرى يا أخواني ماذا رأى أبو رضوان حتى يُصِرّ أنّه لن يعود؟، وتُرى ماذا فعلَ لكي يراه اثنين من إخوانه في هذه الحالة الحسنة؟.. هــل هــو الجهــاد فحســب؟ .. أم أنّــه الإخلاص؟.. أم أنّه حبّ الله ورسوله والدّفاع عن أعراض المسلمين؟.. أم أنّــه شــيء آخر؟، المهمّ أن الله يعلمُ لماذا ذلك، وهو وحده القادر على أنه يجزيه خير الجزاء..

أسألُ الله أن لا يحرمنا أَجْره ولا يَفْتِنّا بعده.. آمين.

وكتبه:

أبو اسماعيل المهاجر